الحضور الصوفي عند الشاعر الشعبي الحاج محمد سفيان

"ديوان السلوان أنموذجا"

The presence of Sufism in Hadj Mohamed Sofiane's popular "Diwan al-Silwan as a model"

بوقلمونة مصطفى[1]
طالب دكتوراه جامعة وهران1 أحمد بن بلة
mustaphabouguelmouna@gmail.com
د. تيجاني زاوي
جامعة وهران1 أحمد بن بلة
zaoui.tidjani@univ-oran1.dz

تاريخ الوصول 01 /2020/04 القبول 2020/09/30 النشر علي الخط 2021/09/15
Received 01 /04/2020 Accepted 30/09/2020 Published online 15/09/2021

ملخص:

نحاول من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على الحضور الصوفي في شعر الحاج محمد سفيان، منطلقين من التعريف بهذا الشاعر الشعبي المعاصر ومساهماته النقدية للشعر الشعبي الجزائري، ثم نشير إلى تجليات التصوف في شعره، كموضوع التوحيد، والصلاة على النبي و مدحه و ذكر معجزاته و التوسل به، و موضوع ذكر مكة و المدينة و تشوقه لزيارتهما، وتوظيفه للقصة القرآنية في شعره كقصة النبي سليمان عليه السلام، كما نحاول من خلال هذا البحث استنباط مظاهر المقامات الصوفية عند هذا الشاعر كمقام الحب و العشق، و مقام التوبة .

وقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى أن أثر الثقافة الدينية بارز في قصائد هذا الشاعر، ويتجلى ذلك في اقتباسه من القرآن الكريم في معظم قصائده، وهذا ما يتسم به أغلب شعراء الشعر الشعبي الجزائري كالشيخ السماتي وسيدي لخضر بن خلوف.

الكلمات المفتاحيّة : الحاج محمد سفيان، الشعر الشعبي، المقام، العِشق، الصوفية .

Abstract :

Through the present paper, we aim at shedding light on the presence of Sufism in Hadj Mohamed Sofiane's poetry, we start by presenting an overview of the poet's life, and then we move to showing his critical contribution to the Algerian popular poetry. Next, we go on to demonstrate the manifestation of Sufism in his poetry presented in the theme of monotheism, the prayers, the praise and the supplications to the prophet and his miracles, the theme of Mecca, Medina and the poet's desire to visit them, in addition to the use of the Quranic stories such as the story of prophet Solomon, peace be upon him. Moreover, we attempt to derive the manifestations of mystic maqams in his poetry such as the maqam of love and repentance .

The paper concludes that the impact of thereligious culture is apparent in Hadj Mohamed Sofiane's poetry, and it is reflected in borrowing from the Holy Quran in most of his poems. And, that is what characterises the majority of the Algerian popular poets such as Sheikh Semati and Sidi Lakhdar Ben Khallouf .

Key words : Hadj Mohamed Sofiane, popular poetry, maqam, adoration, Sufism

1 المؤلف المرسل: بوقلمونة مصطفى الإيميل: mustaphabouguelmouna@gmail.com

تمهيد :

يعتبر الشاعر الحاج محمد سفيان من الشعراء الشعبيين و المثقفين المتميزين في مدينة قصر الشلالة "ولاية تيارت"، فهو شاعر شعبي فذ مزدوج اللغة، فهو يجيد الفرنسية و يحسن اللغة العربية، و تظهر طلاقة لسانه و فصاحته اللغوية أثناء محاوراته في الجلسات الثقافية، وهو سليم الأداء اللغوي و لا زالت آثار التحكم في قواعد اللغة العربية ظاهرة في لسانه شفويا، هذا بالنسبة للغة العربية، أما بالنسبة للثقافة الفرنسية فهو من المنتسبين للمدرسة الابتدائية الفرنسية بالمنطقة "قصر الشلالة"، و كان من المتفوقين فيها، ونال منها قسطا وافرا من الرصيد اللغوي و الثقافي، و في تلك المرحلة من الدراسة تمكن من الاطلاع على أعمال الكتاب الفرنسيين أمثال : فيكتور هيغو، لافونتين، موليير، بولدير، ألفريد دي موسيه و غيرهم من مشاهير الأدب الفرنسي[1]، كما أن أثر الثقافة الدينية و تجليات التصوف بارزة في شعره و لا شك في ذلك إذا عرفنا أن شاعرنا نشأ في بيئة بدوية محافظة معتادة على إرسال أبنائها إلى الكتاتيب من أجل حفظ كتاب الله .

و لعل هذا يدفعنا إلى السؤال الآتي : كيف تجلت هذه الثقافة الدينية و الروح الصوفية في شعره؟ و ما هي أبرز الموضوعات التي تناولها هذا الشاعر؟

وقبل التطرق إلى أثر الثقافة الدينية و تجليات التصوف في قصائد شاعرنا، و حتى لا نغمط الشاعر حقه من التعريف، لا بأس أن نشير إلى لمحة وجيزة مختصرة عن حياته و ثقافته و إسهاماته النقدية للشعر الشعبي الجزائري .

1- نبذة عن حياة الشاعر :

أ – مولده و نشأته : هو محمد سفيان بن عبد الحفيظ و يوسفي حفصة، ولد سنة 1946 بزمالة الأمير عبد القادر المشهورة باسم "طاقين"[2]، و جريا على عادة أهل المنطقة الذين اعتادوا على تحصيل أبنائهم القرآن الكريم منذ نعومة أظافرهم، التحق شاعرنا بالمدرسة القرآنية أو ما يعرف بالكتاتيب بمسقط رأسه "طاقين"، و حفظ من القرآن ما تيسر له حفظه، ثم غادر مسقط رأسه متوجها إلى مدينة قصر الشلالة، و التحق –كما سبق ذكره– بالمدرسة الابتدائية الفرنسية وكان من المتفوقين فيها، إلى أن غادرها بعد أربع سنوات بدعوى كبر سنه، و بعدها سعى للالتحاق بالمتوسطة خراج مدينته، و كان له ذلك حيث انتسب إلى متوسطة التعليم التقني بمدينة قصر البخاري، و نظرا لعوزه[3] لم تستمر دراسته بها مدة طويلة، لكنه لم يستسلم لهذا العوز والحرمان بل ظل يبحث عن السبل التي تمكنه من مزاولة دراسته إلى أن التحق مرة بثانوية "بن شكاو" بالمدية، و مكث بها ثلاث سنوات و نال منها شهادة التعليم المتوسط "B.E.M" مزدوج اللغة وكان هذا متزامنا مع بزوغ فجر الاستقلال[4] .

ب– المهن و الوظائف : لقد أهلته هذه الشهادة "B.E.M" للانضمام إلى سلك التعليم الابتدائي مرتين، الأولى من أواخر سنة 1962 إلى غاية سنة 1964، و الثانية من سنة 1967 إلى غاية سنة 1972، كما غادر أرض الوطن سنة 1964

[1] – ينظر : إبراهيم شعيب ، ديوان السلوان للشاعر الحاج محمد سفيان (امتداد لمدرسة عبد الله بن كرّيو) مع قراءة أولية في الأبعاد و الصور ، مطبعة رويغي ، الأغواط ، ط1 ، 2004 ، ص 5،6 .

[2] – زمالة الأمير عبد القادر إحدى بلديات دائرة قصر الشلالة بولاية تيارت .

[3] – لم يستطع تسديد منحة حقوق التمدرس

[4] – إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 3،4 .

متجها نحو فرنسا و عمل بها فترة من الزمن، و بعد عودته إلى أرض الوطن و استقراره بمدينة قصر الشلالة، امتهن عدة وظائف في القطاع العام و الخاص[1] .

ج- ثقافته : إن هذه المهن و الوظائف لم تشغل شاعرنا عن الاهتمام بالثقافة و التحصيل المعرفي، فقد أنجز بعض الأعمال الثقافية و قام بنشرها و هو الأمر الذي أهله إلى نيل عضوية بالشركة الفرنسية العالمية منذ 1971 "SACEM" أي : شركة المؤلفين و الملحنين للموسيقى والناشرين و التي ناب عنها حاليا الديوان الوطني لحقوق المؤلف، حيث واصل الشاعر نشر أعماله الأدبية، و كان عضوا دائما بالديوان الوطني لحقوق المؤلف[2] .

و حتى لا نكون مقصرين في حق هذا الشاعر لا بد من الإشارة إلى اهتمامه الشديد بالشعر العربي الفصيح، و في مختلف العصور الأدبية، حيث انكب على مطالعته من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، أما بالنسبة للشعر الشعبي فهو ذو ملكة إبداعية فنية راقية تجعلنا نصنفه في طبقات فحول شعراء الشعبيين المتميزين، و هذا ما أدى إلى تغني المطربين بأشعاره وتوافدهم إلى بيته، و على رأسهم عميد الأغنية الصحراوية الفنان خليفي أحمد الذي زار شاعرنا في بيته من أجل تزويده ببعض القصائد لتأديتها غناء[3] .

د – مساهماته النقدية للشعر الشعبي : يقول سليمان جوادي : «... إن الشاعر الحاج محمد سفيان الذي عنيته في بداية الموضوع رغم أنه لا يستطيع كتابة موضوع نقدي، إلا أنه شفهيا يستطيع أن يحلل لك أية قصيدة شعبية تقدمها له، و يستطيع بالتالي إقناعك –وبموضوعية- برداءتها أو جودتها»[4] . نستشف من هذه المقولة أن شاعرنا ذو ملكة نقدية فذة، و يتجلى ذلك من خلال أرائه و مواقفه في نقد الشعر الشعبي و تقويمه، و من أبرز هذه المواقف هي : موقفه من التأثر و السرقات الشعرية، حيث يرى أنه لا ضير في أن يأخذوا الشعراء من بعضهم البعض، و يثروا نصوصهم بمعان و ردت عند الشعراء الفحول، و لكن مع شيء من التعديل والإضافة، و لا ينكر أنه تأثر ببعض فحول الشعراء الشعبيين، وضمّن ما استحسن من معاني أشعارهم في نصوصه الشعرية، إلا أن ما يمقته شاعرنا لنفسه و لغيره من الشعراء أن يكون الأخذ من الشعراء كليا، فهذا يعتبر سرقة، و لهذا عندما أنشده أحد الشعراء الشعبيين هذه الأبيات :

آسبحانك يا العالم باللّي صار رُدْ الغُربة آ إلهي بركاني
السّرْبيسْ اصْعيبْ شبَّعني دُمّار و نُدَفَّر في الكاتْبة عُقب ازْماني
مَا نَاخُذْشِي رَايْ مَنْ جَانِي دَبَّارْ من يعمل فِيَّ امْزيَّة يَهْدانِي

أوقفه معترضا عليه قائلا : إن البيت الأخير لعبد الله ابن كرّيو، ولا يجوز نسبته إليك لأنه سرقة حرفية، و قرأ عليه القصيدة التي ورد فيها هذا البيت الشعري المنسوب لابن كرّيو :

لا تَقْنَطْ يَا خَاطْرِي سَاعفَ لَقْدارْ وَتْمَاهَلْ لَمْصَايِبْ الدَّهرْ الْفَانِيْ

إلى أن يقول ابن كرّيو :

---

[1]- اشتغل في إحدى الشركات بوهان ما بين 1966/1965 ، التحق سنة 1972 بالصندوق الوطني للتجار غير الأجراء تقلد منصب مسؤول الوكالة بولاية تيارت إلى غاية سنة 1977 .

[2]- ينظر : إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 5 .

[3]- ينظر : م ن ، ص 6،8 .

[4]- ينظر : م ن ، ص 11 ، نقلا عن سليمان جوادي ، مجلة الوحدة ، 1988 .

مَا نَاخُذْشِي رَايْ مَنْ جَانِي دَبَّارْ من يعمل فِيَّ امْزيَّة يَهْدانِي

و في موقف آخر يقول شاعرنا : نبّهت هذا الشاعر إلى خطأ معنوي وقع فيه حين قال :

الشيخ أحمد قوَّال عُمْرُه مَا يُوهِمْ بَحْرُه قَاوِي شَادُّه قَابْض مَجْرَاهْ

فيقول شاعرنا : فقوّمت شعره، أو قمت بتصحيح خطأ هذا البيت، و قلت له لو قلت ما يلي لكان أصوب :

الشيخ أحمد قوَّال خَايِفْ مَا يُوهِمْ بَحْرُه مَايِجْ رَاسْمُه قَابْض مَجْرَاهْ

لأن المعنى الأول –كما يقول شاعرنا– فيه إفراط و شطط في القول و مبالغة غير محمودة، بينما في المعنى الثاني الذي وقع عليه التصحيح منا "خايف لا يوهم"، فنلاحظ أن الإنسان لا يجوز له أن يدعي الكمال و العصمة كما جاء في المعنى الأول "عمره ما يوهم"[1] .

و للشاعر أراء و مواقف كثيرة في نقد الشعر الشعبي و تقويمه لا يتسع ذكرها جميعا في هذه المداخلة، فاكتفينا بذكر أنموذجين فقط، و نحسبهما كافيين على إبراز ملكة الشاعر في نقد الشعر الشعبي و تقويمه .

هـ– وفاته : اختطفه الموت يوم الأربعاء 29 جانفي 2014 عن عمر يناهز 68 سنة .

2– تجليات التصوف في شعره :

لا شك أن من يطلع على أشعار الحاج محمد سفيان يستشف بين ثناياها نبرات صوفية تنسجم مع ثقافته الدينية، ذلك أنه تربى في مجتمع بدوي محافظ على عاداته و تقاليده و التقيد بتعاليم الإسلام السمحة، مجتمع اعتاد أبناؤه على حفظ كتاب الله و تعلم العلوم الدينية من تفسير و حديث و فقه و غيرها من العلوم الدينية، فلا غرو إذن أن ينهل شاعرنا من هذه الثقافة الدينية الصوفية الروحية، وهذا ما سنلمسه في هذه المداخلة عند استعراض موضوعات شعره المتنوعة .

و من هذه الموضوعات :

أ– موضوع التوحيد :

لقد حفلت أشعار الحاج محمد سفيان بذكر الله و تعظيمه و التعبير عن مدى حبه و تعلقه به، و هذا ما نلمسه في أغلب أشعاره، و نذكر منها قوله : في قصيدته "سبحان خالق الكون"

سُبْحانْ خَالَقْ الْكَونْ الحَاصِي عْدَادْهَا رَبّ الْجَلِيلْ شَانُه عَظِيمْ الْجَاهْ

حَرْفَيْنْ رَادْهُمْ كَافْ أُو نُونْ اقْبَالْهَا أُو هُومَا اسْبَابْ كَوْنُه كَمَا تَرَاهْ

فَعَّالْ كُلْ قُدْرَة قَادرْ لَحْوَالْهَا خَبِيرْ حَالْ أَمْرُه لَا مَا يَخْفَاهْ[2]

فهنا الشاعر يقر بعظمة الله و قدرته المتجلية في خلق هذا الكون و إحصاء كل شيء فيه عددا، و المتجلية كذلك في إرادة الله المطلقة و هي قوله : للشيء كن فيكون، فهو الفعّال لما يريد، الخبير الذي لا يخفى عليه شيء .

و ما نلمسه في هذه الأبيات هو أنها جاءت حبلى بالاقتباس من آيات قرآنية كثيرة و هي : قوله تعالى : « وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا »[1]، (سُبْحانْ خَالَقْ الْكَونْ الحَاصِي عْدَادْهَا)، و قوله أيضا : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »[2]، (حَرْفَيْنْ

[1]– ينظر : إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 11،12،13 .

[2]– إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 137 .

رَادْهُمْ كَافْ أُو نُونْ اقْبَالْهَا)، و في قوله : « فعال لما يريد ... »[3]، (فَعَّالْ كُلْ قُدْرَة قَادرْ لَحْوَالْهَا)، و في قوله كذلك : « إن الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ و لا في السّماءِ »[4]، (خَبِيرْ حَالْ أَمْرُه لَا مَا يَخْفَاهْ) .

كما تتجلى عظمة التوحيد عند شاعرنا في تنزيه الله عن مماثلة و مشابهة مخلوقاته، و ذلك في قوله في مطلع قصيدته "ربي سيدي":

رَبِّي سِيدِي يَا الْعَالِي مُولَانَا آ سُبْحَانَكْ يَالِيْ مَالَكْ مِيثَالْ[5]

و في قوله أيضا في مطلع قصيدته "سبحان الله عالم الخفا" :

سُبْحَان الله عَالمْ الخَفَا وَاحَدْ مَعْظَمْ شَانَكْ يَالِّي مَالَيْك اشْبِيهْ[6]

و تتجلى عظمة التوحيد أيضا عند الشاعر في تنزيه الله عن رؤية مخلوقاته لذاته القدسية وذلك في قوله في قصيدته "باسمك يا مجيب" :

يَا مَنْ تَرَى دُونْ مَا تَرَاكْ ابْصَارْ حَاضَرْ نَاضَرْ يَالِّي مَا لَيْكْ اشْبِيهْ

و هذا اقتباسا من الآيتين الكريمتين، الأولى في قوله تعالى : « لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ»[7]، و الثانية في قوله تعالى :« **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** »[8] .

ب- موضوع الصلاة على النبي "صل الله عليه وآله و سلم" :

اهتم الشعراء الشعبيون في دواوينهم بالإكثار من الصلاة و السلام على النبي(ص)، لعلمهم بمكانتها و عظمتها عند الله تعالى، الذي صل و ملائكته على نبيه و أمرنا بالصلاة و السلام عليه، حيث يقول عز وجل : « **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** »[9] .

و يجتهد شاعرنا في الصلاة و السلام على الحبيب المصطفى في معظم قصائده و ذلك امتثالا لأمر الله تعالى، و لنيل الحسنات و البركات، و في ذلك يقول الشاعر :

بَالصَّلَاةْ اعْلِيهْ نَبْدَى نَتْبَدَّى وَ السَّلَامْ عْلَى النَّبِي طَاهَ الأَمِينْ[10]

و شاعرنا يعي أن في الإكثار من الصلاة على النبي أجر عظيم، فالصلاة الواحدة بعشرة صلوات، والعشرة بمئة ...[1]، و لهذا نجده لا يكتفي بالصلاة عليه كسائر الذاكرين، بل يصلي عليه قدر كل ما خلق الله من مخلوقات و جمادات، لعل ذلك يترجم قليلا مما يكنّه قلبه من حب للنبي(ص)، و لأدل و أبلغ على ذلك قوله :

---

[1]- سورة الجن ، الآية : 28 .
[2]- سورة يس ، الآية : 82 .
[3]- سورة البروج ، الآية : 16 .
[4]- سورة آل عمران ، الآية : 5 .
[5]- ابراهيم شعيب ، الديوان ، ص 159 .
[6]- المرجع نفسه ، ص 149 .
[7]- سورة الانعام ، الآية : 103 .
[8]- سورة الشورى ، الآية : 11 .
[9]- سورة الأحزاب ، الآية : 56 .
[10]- إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 172 .

الصَّلاَة اعْلِيهْ صَبْحَة وَاعْشِيَّا قَدْ الْمَطَرْ امْعَ ارْعُودُه بَرْقُه حَادْ
قَدْ اقْوَايِلْ هَجْرَتْ شَاوْ اضْحَيَا عَلَّمْ حَرُّه فِي صْمَايِمْ[2] وَقْتَ حْصَادْ
قَدْ الرَّملْ مْعَ الْحَجَارْ الصَّمِيَا أُو قَدْ الْبَحرْ أُو مَاهْ بَامْوَاجُه هَدَّادْ
قَدْ الطَّايِرْ فَ السْمَوَاتْ الْعُلْيَا "وَالِّي يَمْرَدْ فَالْوُطَى"[3] نَمْلَة وَاجْرَادْ
قَدْ ابْهَايِمْ وَالْوُحُوشْ السَّمِيَّا نَذْكُر مَنْهَا "الْمَاتْعَة وَلِّي شَرَّادْ"[4]
قَدْ السَاكَنْ فَالْمُدُنْ وَالْبَادِيَا وَالِّي تَالَعْ فَالْخْلاَ فِي "أَرضْ ثْمَاد"[5]
قَدْ اشْجَارْ اعْشُوبْهَا فَالْبَرِّيَا أُو قَدْ اغْيُومْ اسْحَابْهَا كَاثَفْ يَزْدَادْ
قَدْ اسْوَاقِي اعْدَادْ مَاهَا جَرَّايَا وقَدْ اقْلَتْ الْحَجْرَة "مَاهَا يَرْكَاد"[6]
قَدْ اعْوَاصَفْ هَبَّتْ ارْيَاحْ اقْوِيَّا مَطْرُه هَاطَلْ سَيَّلَ الشَّعْبَة وَالْوَادْ
صَلُّوا صَلُّوا اعْلِيهْ مَا دَامْ الدُّنْيَا زِيدُوا صَلُّوا اعْلِيهْ صَلُّوا يَا عِبَاد[7]

ج- موضوع مدح النبي صل الله عليه و آله و سلم :

حفلت دووابن الشعراء الشعبيين بمدح النبي (ص) و الإشادة بصفاته و خصاله، و هذا ما نلمسه في قصيدة " آكامل لخصايل" :

آكَامْلَ الْخْصَايِلْ سَيَّدْ لَسْيَادْ يَا الْمُخْتَارْ آ قْرِيبْ الضَّنَّة نَرْجَاكْ فِي ارْضَاكْ
آ اللِّي نُورُكَ فَاتْ النُّورْ ضَيْ لَفْجَارْ نُورْ ذَاتَكْ مَا لَيهْ اشْبِيهْ فِي اضْيَاكْ
سَرْ نُورَكْ "سَرُّه مَكْنُونْ"[8] فَاتْ لَسْرَارْ فَاضْ فَيْضَكْ سَرَّ الوُجُودْ فِي ابْهَاكْ
لَوْلاَ نُورَكْ مَا كَانْ لَيلْ وَانْهَارْ لَوْلاَ نُورَكْ مَاكَانْ دُونْ وَاحْدَاك
نُورَكْ مَنُه وُجْدَتْ جَنَّة أُو خَلْقَتْ النَّارْ بِيكْ مَقْرُونْ اسْمَ اللهْ فِي اسْمَاكْ[9]

و يمدحه في موضع آخر بقوله :

طَاهَ عِزّْ الرُّوحْ بِيهْ اتْعَزَّزْنَا صَلّى الله اعْلِيهْ سِرَاجُه مُنِيرْ[10]

و يقر في موضع آخر بأنه هو مادح النبي (ص) و ذلك في قوله :

وَ الشَاعَرْ سُفْيانْ لَيهْ اتْمَثَّلْنَا "وَاقْرِيْسِيْ"[1] فِي نَسَبْتِيْ مَانِي بَدَّالْ

---

[1]- ينظر : صحيح مسلم ، "باب الصلاة على النبي بعد التشهد" رقم الحديث : 408 ، و القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ل : السخاوي ، تح : محمد عوامة مؤسسة الريان ط1 ، 2002 ، ص 232 .

[2]- صْمَايِمْ : هي أشد أيام الحَر .

[3] - الِّلي يَمْرَدْ فَالْوُطَى : الذي يزحف في الأرض الوطيئة .

[4] - الْمَاتْعَة واللِّي شَرَّادْ : أي الحيوانات الأليفة والشاردة .

[5]- أَرض ثْمَادْ : أرض ذات ثماد ؛ وهي التي تكون مياهها قريبة من سطحها .

[6]- مَاهَا يَرْكَادْ : أي ماؤها راكد ، والمقصود بها مياه القِلاَتْ .

[7]- إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 130 ، 131 .

[8]- سَرُّه مَكْنُونْ : سره خافٍ .

[9]- إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 156 .

[10]- المرجع نفسه ، ص 183 .

مَدَّاحْ الرَّسُولْ مَفْتَاحْ الجنَّا زَيْنْ النَّظْرَة دَايْرُه مَفْتَاحِي فَالْ[2]

د- موضوع التوسل بالنبي و طلب شفاعته :

إن التوسل من الوسيلة، و توسل إلى الله تعالى أي عمل عملا تقرب به إلى الله[3]. و وسلت إلى الله، و توسلت إليه بالعمل أي تقرّبت[4] .

أما الشفاعة فيقصد بها طلب التجاوز عن السيئة[5]، و لا يتأتى ذلك إلا بالتوسل بالنبي الأكرم و طلب شفاعته .

و قد نال موضوع التوسل و التشفع بالنبي (ص) حصة كبيرة في قصائد شاعرنا فأمله الأكبر هو نيل شفاعة النبي (ص)، و ذلك بالتضرع و التوسل به فهو مفتاح النجاة، ومن أجل نيل هذه الشفاعة تجده يبكي و يتذلل عند الروضة الشريفة :

شَدَيْتَ الشَّبَاكْ نَبْكِي نَذَلَّلْ نَرْجَى فِي شْفَاعْتُه أَمَامْ اللهْ

هُوَ مَفْتَاحْ الاَخْرَةْ يَا مَنْ تَجْهَلْ مُحَمَدْ شْفِيعْنَا رَسُولْ اللهْ[6]

و يشير الشاعر إلى خوفه من نار جهنم، و لهذا يرجو و يتوسل النبي أن لا ينساه يوم القيامة، فهو عين الرحمة، الشفيع المغيث، الذي تترجاه جميع الأمة :

رَانِي خَايِفْ يَا اَحْمَدْ مَنْ صَهْدَ النَّارْ عَنْدَكْ لاَ تَنْسَ احْبِيبَكْ وَاتْخَلِيهْ

يَوْمَ اَنْ تَظْهَرْ فِيهْ تَتْكَاشَفْ لَسْرَارْ وَاتْكَلَمْنِي اجْوَارْحِي شِي مَا تَخْفِيهْ[7]

و يقول في موضع أخر :

« جَهَنَّامَة حَرْ نِيرَانَكْ تَصْهَدْ هَارَبْ لَيْكْ أُو طَامْعَكْ مَنْهَا تَحْمِيهْ

آ شَفِيعْ اتْغِيثْنَا يَا مُحَمَد عَيْنَ الرَّحْمَة قَاع أُمَّة تَرْجَى فِيهْ »[8]

و يتعدى التوسل بالنبي (ص) عند شاعرنا إلى التوسل بالصالحين و طلب الغوث منهم، من اجل زيارة بيت الله الحرام، فهم المنقذون له وقت الشدة :

قَلْبِي فَرْفَرْ طَارْ بَاجْنَاحُه عَوَّلْ شُورْ الْهَادِي رَاحْ قَاصَدْ بَيْتَ اللهْ

إلى أن يقول :

رَانِي خَايَفْ هُوَ اِتِيهْ أُو نَا نَهْبَلْ رِجَالْ اللهْ حِيتْكُمْ اتْكُونُوا جَاهْ

---

[1] – وَافْرِنْسِيْ : يقصد نسبه .

[2]– إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 160 .

[3]– الطاهر أحمد الزاوي ، مختار القاموس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا تونس د ط، د ت ، ص 657 .

[4]– ينظر : الزمخشري ، أساس البلاغة ج2، مادة وسل ، تح : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط1 1998 ، ص 334 .

[5]– ينظر : مجموعة من المؤلفين ، معجم ألفاظ القرآن الكريم ج1 ، مجمع اللغة العربية القاهرة ، ط2 ، 1988 ، ص 632 .

[6]– إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 140 .

[7]– المرجع نفسه ، ص 147 .

[8]– المرجع نفسه ، ص 153 .

انْتُمْ سَلاَّكِينْ مَنْ هُوَ حَاصَلْ خَفُوا لَيَّا رَاهْ "ضُرِّي جَارْ ابْدَاهْ"[1]
ادْعُو رَبِّي بَاسْمْكُمْ عَسَى يَقْبَلْ غِيثُونِي قُولُوا امْعَايَا انْ شَاءَ اللهْ[2]

هـ- موضوع ذكر مكة و المدينة و تشوقه لزيارتهما :

لقد أفصح أغلب الشعراء الشعبيين عن مدى شوقهم لزيارة البقاع المقدسة، هذا الشوق المرتبط –لا محالة– بالشوق لزيارة النبي (ص) و روضته الشريفة، و هذا ما يظهر جليا في قول شاعرنا :

قَلْبِي فَرْفَرْ طَارْ بَاجْنَاحُه عَوَّلْ شُورْ الْهَادِي رَاحْ قَاصَدْ بَيْتَ اللهْ
هَذِي مُدَى اسْنِينْ نَتْمَنَّى يُوصَلْ فِي ذَا الْمَرَّة فَارَقْ الْجَسَدْ أُو خَلاَّهْ

إلى أن يقول :

فَالْمَدِينَة نُوصْلُه ثَمَّا نَنْزَلْ "زَيْنَ النَّظْرَة فَالْمَنَامْ اسْتَرْوَيْنَاهْ"*[3]

و في موضع آخر يشير إلى مدى اشتياقه إلى زيارة النبي (ص) و البيت الحرام :

سَهَّلِّي فِيمَا اطْلَبْتَكْ يَا جَبَّارْ ضَايِقْ حَالِي خَاطْرِي وَاشْ اِنَسِّيهْ
اتْوَحَشَتْ ازْيَارَةْ النَّابِي الْمُخْتَارْ وَالْبَيْتْ العَتِيقْ قَلْبِي شَايِشْ لِيهْ[4]

و يصف شاعرنا حالة اشتياقة لزيارة البقاع المقدسة و النبي الأكرم (ص)، كحالة المسجون المشتاق للحرية، فصبره عن هذه الزيارة قد طال كثيرا :

يَا اِلَهِي طَالْ صَبْرِي ذِي مُدَّة سَهَّلْ يَا رَبِّي اسْرَاحْ الْمَسْجُونِينْ
هَذِي مُدَّى اسْنِينْ نَتْمَنَّى نُقْدَى شُورْ الْهَادِي انْزُورْ طَهَ نُورْ الْعَينْ

إلى أن يقول :

وَيْكَتْ يَا رَبِّي اتْزُولْ ذَالشَّدَّة "وَانْرَيَّحْ مَنْ ذَالْوُحَشْ"[5] تَرْتَاحْ الْعَينْ
وَلاَّ لِي مَشْعَالْ شَاعَلْ فَالْكَبْدَة وَاسْكَنْلِي قَاعْ الْمفَاصَلْ رَاهْ اخْزِينْ
طُولْ اللَّيْلْ انْبَاتْ سَاهَرْ بَالثَّمْدَة وَانْوَنَّسْ فِي خَاطْرِي مَنْ حِينْ الْحِينْ
يَا مُحَمَدْ فَاضْ شَوْقِي رَاهْ اقْدَى غِيثْ احْبِيبكْ يَا شْفِيعْ الْمُذْنِبِينْ
هَذَا بَرْ ابْعِيدْ خُفَتْ اِيجِي "كَوَّدة"[6] رَانِي مَثْلَ الطَّيْرْ مَكْسُورْ الْجَنْحَينْ

---

[1]– ضُرِّي جَارْ ابْدَاهْ : جار ، من الجور ، بداهْ : بداية ، والمعنى ضري تجاوز داؤه حدّا أضرّ بي .
[2]– إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 139 .
*– زَيْنَ النَّظْرَة فَالْمَنَامْ اسْتَرْوَيْنَاهْ : زين النظرة : يراد به النبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم ، في المنام استرويناه : في المنام رأينا صورته .
[3]– إبراهيم شعيب ، م ن ، ص 139 .
[4]– المرجع نفسه ، ص 146 .
[5]– وَانْرَيَّحْ مَنْ ذَالْوُحَشْ : استريح من هذا الشوق .
[6]– كَوَّدة : أي متعب .

لاَ طَيَّارَة اتْكُونْ لَيْنَا مُوعَّدَّة اتْعَجَّلْ فَالخَطْرَة ابْجَاهْ الْمَقْبُولِينْ
"مَثْلَ العَظْلَمْ"[1] فِي اسْمَاهَا مَرْفُودَة وَلاَّ قَرْدَ ارْصَاصْ فَايِتْ رَمْشَتْ عَينْ
مَا تَسْمَعْ غَيْ حَسْهَا مَثْلَ الرَّعْدَة ابْشُوفَتْ عَيْنَكْ سَكْنَتْ اسْمَاهَا فَالْحِينْ
فِي سَاعَاتْ اقْلاَلْ رَانِي فِي جَدَّة اصْلاَة الْعَصْر انْكُونْ بَيْنَ الْحَرَمَينْ
وَانْشَاهَدْ بُوفَاطْمَة زَيْنَ الرَّقْدَة فَالْمَدِينَة امْقَامْ جَدَّ الْحَاسَنَينْ
ذَاكْ الْوَقتْ اتْكُونْ سَاعَة مَحْمُودَة انْطُوفْ الْكَعْبَة انْزُورْهَا جَمْعَة وَاثْنَينْ[2]

و- توظيفه للقصة القرآنية : "قصة سيدنا سليمان عليه السلام"

إن من صفوة القول في القصة القرآنية أنها : « تختلف عن القصة الأدبية – شكلا ومضمونا – إذ لا دخل للخيال والأسطورة في تكوينها، فأخبار القرآن الكريم وثائق تاريخية لا تشوبها شائبة، ولا شك في صدقها وانطباقها على الواقع التاريخي الصحيح »[3] . قال تعالى : «نحنُ نقصُّ عليكَ أحسنَ القصَصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآنَ »[4].

وقد كان القصص القرآني مصدرا ثريا أغدق على الشعراء الشعبيين بمعانٍ جليلة، وحاولوا تمثّلَ هذا القصص وصياغته فنيا في أشعارهم، مع تفاوت بينهم في هذا الأمر و ذلك حسب مستواهم الثقافي وفهمهم لمعاني القصص، و بعضهم قصّر في حق القصص القرآني وألحق به شيئا من الخلط نتيجة لسوء الفهم وقلة الوعي، وقد صدر هذا الأمر من الشعراء الأميين[5] .

لكن شاعرنا تميز عن غيره من الشعراء –من خلال أنموذج قصة النبي سليمان– بالفهم الصحيح للقصة و إدراك أهدافها، و تقديمها في شكل مشاهد مرتبة و فق تراتب القصة القرآنية أي محاولا السير مع تراتب السياق القرآني مشهدا بمشهد، ليحافظ بذلك على سمت الفن القصصي القرآني، و هذا التوافق و الانسجام مع القصة القرآنية يظهر جليا في قوله :

وَيْنُه سُلَيْمَانْ بَاجْنُودْ اقْوِيَا اَنْسْ أُو جَنْ أُو رِيحْ جَمْلَة طَاعَتْ لِيهْ
حَتَى النَّمْلَة خَايْفَة ثَانِي هِيَّ جَيْشُه طَاعَنْ وَادْنَا جَا مَتْعَنِيهْ
قَالَتْ حِينْ اِيمُرْ مَا تَبْقَى حَيَّة خُفْتُه يَعْفَسْنَا أُو مَا يَشْعُرْشِي بِيهْ
أُو دَخْلَتْ تَجْرِي فِي امْسَاكَنْ مَخْفِيَة وَتْبَسَمْ مَنْ قَوْلْهَا وَاسْتَعْجَبْ فِيهْ
وَاشْكُرْ رَبِّي نَعَمْتُه ذِيكْ أُو ذِيَّا حِينْ انْعَمْ اعْلِيهْ وَعْلَى وَالِدَيهْ
نَادَهُمْ فَالْحِينْ دَارُوا جَمْعِية اتْفَقَدْ جَيْشُه عَارْفُه جَمْلَة حَاصِيهْ
وَيْنْ الْهُدْهُدْ غَابْ مَنْ ذَ الْحَيْحَايَة اِيوَّجَّدْ رُوحُه لَلْقَضَاء يَتْهَيَأْ لِيهْ
جَيْتَكْ عَاجَلْ بَالْخْبَرْ عَفْ اعْلِيَا غُبْتْ اعْلِيكُمْ سَالْنِي خَبْرِي نَحْكِيهْ
نَحْكِيلَكْ ابْقَصْتِي ذِيكْ اقْصِيَّة يَا نَبِي اللهْ أَمْرَكْ مَا نَعْصِيهْ

---

[1] – مَثْلَ العَظْلَمْ : مثل البرق .

[2] – إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 171، 172 .

[3] – محمد متولي الشعراوي ، قصص الأنبياء ، دروس وعبر ، أشرف عليه واعتنى به د. أحمد الزعبي ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ص : 5 .

[4] – سورة يوسف ، الآية : 3.

[5] – إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 61 .

كُنْتْ امْسَافَرْ طَالَتْ الْمُدَّة بِيَّا وَاتْلَقَيْتْ ابْقُومْ رَبِّي شَرَّكَتْ بِيهْ
وَاتْعَجَبْتْ الْقَيْتْ مَرْأَة ذَاكِيَّة قَالُوا ذِي بَلْقِيسْ : مُلْكْ اتْسَيَّرْ فِيهْ
مَمْلَكْة مَنْ كُلْ جِيهَة مَسْوِيَّة ذِيكْ الْعَجْبَة عَرْشْهَا مَا لَيْهْ اشْبِيهْ
دَارَلْهَا مَرْسُولْ عَاجِلْ بَابْرَيَة يَأْتُونِي فَالْحَالْ نَبَّهَا تَنْبِيه
وَأَتُوا مُسْلِمِينْ بْلاَ كِبْرِيَا عَرْشَكْ كَامَلْ قَاعْ نَاسُه وَامْوَالِيهْ
انْشَاوْزَكُمْ يَا ارْجَالْ اللَّزْمِيَّا وَافْتُونِي فِي حَالْ أَمْرِي حُرْنَا فِيهْ
قَالُوا لِيهَا أُوجُودْ رْجَالْ اقْوِيَّا وَافْرَاسِينْ اجْيُوشْنَا عَرْشَكْ تَحْمِيهْ
شُوفِي بَلِّي تَأْمْرِي بِيهْ انْتِيَّا قَالَتْ رَانِي عَالْمَة الأَمْرْ أُو نَدْرِيهْ
الْمَلِيكْ اعْوَايْدُه هَذِي هِيَّا مَا يَرْحَمْشِي كُلْ مَنْ جَا بَيْنْ اِيدَيْهْ
وَالْفَسَادْ اِيعَمْ فِي هَذَا الْقَرْيَة اِيذَّلْ الْعَزِيزْ وَالطَّايِقْ يَخْزِيهْ
مَا يَنْفَعْنِي قِي نَرْسَلْ هْدِيَة نَسْتَخْبَرْ وَانْشُوفْ حَالُه نَعْلَمْ بِيهْ
وَارْفَضْ سُلَيْمَانْ مَا رَسْلَتْ هِيَّا اعْطَانِي رَبِّي خَيْرْ مَنْ مَعْطَا غَيْرِيهْ
يَا مَرْسُولِي رُوحْ عَاجِلْ عَزْمِيَّا نَرْسَلْ جَيْشِي بَرَّكُمْ قَاعْ انْغَطِيهْ
وَانْخَرَجْكُمْ صَاغْرِينْ أُو ذَلِّيَّا وَانْخَذَرَّكُمْ وَطَنْكُمْ جَمْلَة نَخْلِيهْ
تْجِيبُولِي عَرَشْهَا بَيْنْ اِيدَيَّا وَاعْطَى أَمْرُه لِجْنُونْ أُو طَاعَتْ لِيهْ
وَاحَدْ مَنْهُمْ قَالْ فَالْحِينْ اهْنَايَا وَاخُرْ فَاتُه قَالْ : فِي لَحْظَة نَاتِيهْ
تَتْعَجَبْ وَاتْحَيَّرْ : قُدْرَة خَافِيَّة أُو فِي رَمْشَة مَنْ الْعَينْ : وَجْدُه بَيْنْ ايَدَّيْهْ
شُوفِي عَرْشَكْ صُورْتُه : هَذِي هِيَّا هَذَا الْعَرْشْ اتْقُولْ عَرْشِي يَشْبَهْ لَيْهْ
أُو دَخْلَتْ صَرْحُه حَاسَبْتُه لُجَّيَا وَاتْكَشْفُو سِيقَانْهَا ابْلاَ مَا تَدْرِيهْ
قَالَتْ رَبِّي ظَالْمَة عَفْ اعْلِيَّا سَلَمْتْ للهْ طَايْعَاتُه مَا تَعْصِيهْ
هَا شُفُو مَا صَارْ فِي دَارْ الدَّنْيَا قُدْرَة رَبِّي فَاقَتْ الْمُلْكْ ابْأَسْرِيهْ
قَدَّرْ رَبِّي مَاتْ مَوْتَة خَافِيَّة ذِيكْ الْبَدْعَة قِي دُودَة عَلْمَتْ بِيهْ
وَاظْهَرْ خَبْرُه شَاعْ فِي كُلْ انْبِيَّا تَتْعَجَبْ وَاتْحِيرْ : فِي مَوْتُه تَنْبِيهْ
وَاتْلَفْ مُلْكْ مَا بْقَى غَيْرْ احْكَايَا يَا حَصْرَاهْ اَجْيَالْ تَقْرَى وَاتْقَرِيهْ[1]

3- المقامات الصوفية عند الشاعر :

أ- مقام الحب و العشق :

إن مقام الحب و العشق مرتبط بمدح النبي و التوسل به، و هذا ما حفلت به —كما سبق ذكره- أغلب قصائد شاعرنا، فحبه و عشقه للنبي يظهر جليا في هذا البيت :

[1]- إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 144،143، 145 .

عُمْرُ مَا يَهْنَى الْعَاشقْ فالدْنيَـا عشْق الْهَادي* مَا اخْطَانِي مَا نَخْطِيه[1]

و في موضع آخر يقول :

مَدّاح الرّسـول بـاهـوّاه أمْعـذّب أُو مَنْ يَغْتَبْنَا إنْ شَاء الله يَلْقَى جَزَاهْ

كُل آخر حَشْرُوة مَع مَنْ يحبّ وانَا أعْشَقـتْ امحبَّة رسُـول الله[2]

أما التوسل بالنبي فيظهر جليا في قوله :

"ضَيْمِي"[3] عَالرَّسُولْ ظَاهَرْ لاَ جَحْدَة يَحْضَرْ لَيَّا رَاهْ فَعْلِي رَادِي شَينْ[4]

ب- مقام التوبة :

عند قراءتنا لشعر الحاج محمد سفيان ألفينا مقامَ التوبة متمظهِراً فِي أبيات شعريّة عدِيدة، يبدو فِيها الشاعر في صفة التائب النادم، و هذا ما نلمسه في هذه الأبيات :

نَتْمَنَّى سَاعَة اسْعِيدَة تَاتِينِي انْوَحَّدْ فِيهَا خَالْقِي مَالَكْ لَرْقَابْ

يَا اِلهِي تُوبْ عَنِّي وَارْحَمْنِي وَاسْقِينَا مَنْ حَوضْ فَضْلَكْ يَا وَهَّابْ

طَامَعْ بَالْغُفْرَانْ قُلَتْ اتْسَامَحْنِي بَشَّرْنِي بَرْضَاكْ وَافْتَحْ ذَاكْ الْبَابْ

مَثَّلَتْ الْمَرْأَة الدُّنَيا حَرْقَتْنِي الْحَبسْ اِلِّي دَاخْلُه مَقْفُولْ الْبَابْ

وَالتَّرَاسْ اِلِّي اقْصَدْنِي وَاصْحَبْنِي ذَاكْ ابْلِيسْ امْعَاهْ نَفْسِي جَاوْ اصْحَابْ

أَمَّا الضُّرْ اِلِّي امْكَنِّي وَاطْعَنِّي ذَاكْ الْمَالْ اِلِّي اجْمَعْتُه رَاحْ اصْرَابْ

ذَاكْ الْجَيشْ اِلِّي ادَّانِي وَاهْزَمْنِي ذُوكْ أُولاَدَكْ يَغَبْنُوكْ اعْلَى لَعْقَابْ

الْمَرْحُولْ اِلِّي رَاحْ عَنِّي وَابْعَدْنِي هَذَا حَالْ اِلِّي امْكَثَّرْ منْ لصْحَابْ

الْحَمْدَ الرَّبِّي "قَاعْ مَنْهُمْ يَخْفَظْنِي"[5] نَشْكُرْ فَضْلُه تَابْ عَنَّا ذَالتَّوَّابْ[6]

و نخلص في الأخير —من خلال هذه الدراسة التي حاولنا أن نجمع فيها بين الإيجاز الذي لا يخل، و الإسهاب الذي لا يمل-، إلى أن أثر الثقافة الدينية و الروح الصوفية بارزان في معظم نصوص شاعرنا المتنوعة بين توحيد الله و تعظيمه و رجاء توبته، و بين مدح النبي والتوسل به و طلب شفاعته يوم القيامة، والاشتياق إلى زيارة روضته الشريفة و البقاع المقدسة .

و هذه أهم السمات التي يتميز بها شعراء الشعر الشعبي، سمات ناتجة عن تشبعهم بروح الثقافة الدينية وتعاليم الشريعة الإسلامية السمحة، فمنذ صغرهم نشأوا على ارتياد الزوايا والكتاتيب و المساجد وتربوا على تعاليمها وقواعدها ومبادئها .

---

[1]- من قصيدة : بيت الله الحرام ، قصيدة لم ترد في الديوان "لم تطبع" .

[2]- من قصيدة : أسألتك يا وهاب ، قصيدة لم ترد في الديوان "لم تطبع" .

[3]- ضَيْمِي : أي هو الذي أعوّل عليه في رد ضيمي .

[4]- إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 172 .

[5]- قَاعْ مَنْهُمْ يَخْفَظْنِي : جميع ما تعوذ منه الشاعر ، وهم : الدنيا ، والشيطان ، والمال ، والذرية ، والأصحاب ، وكلها قد جعل لها رموزا في قصيدته .

[6]- إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 128 .

المصادر و المراجع :

- القرآن الكريم .
1- إبراهيم شعيب، ديوان السلوان للشاعر الحاج محمد سفيان (امتداد لمدرسة عبد الله بن كرّيو) مع قراءة أولية في الأبعاد و الصور، مطبعة رويغي، الأغواط، ط1، 2004 .
2- الزمخشري، أساس البلاغة ج2، مادة وسل، تح : محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1،1998 .
3- السخاوي شمس الدين، القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع، تح : محمد عوامة مؤسسة الريان ط1، 2002 .
[4]- الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس د ط، د ت .
[5]- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الصلاة، ترقيم و ترتيب : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكوثر للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 2010 .
[6]- محمد متولي الشعراوي، قصص الأنبياء، دروس وعبر، أشرف عليه واعتنى به د. أحمد الزعبي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، دط، د ت .
7- مجموعة من المؤلفين، معجم ألفاظ القرآن الكريم ج1، مجمع اللغة العربية القاهرة، ط2، 1988 .